

الدولة الرستميّة في تيهـرت

د. سهيل زكار

جامعة دمشق

بعدما قامت الخلافة العباسية ، وقعت هذه الدولة اسيرة لمشاكل الشرق الاسلامي ، مما اضطرها في كثير من الاحيان الى عدم الاهتمام بمشاكل الغرب الاسلامي ، ولهذا نلاحظ ان قوى كثيرة نشطت في اجزاء من الغرب ، واستطاعت اقامة دول مستقلة عن الخلافة العباسية .

ومن الملاحظ ان الغرب الاسلامي ، بعدما دخل في الاسلام ، قامت فيه حركات كبيرة معارضة للحكم الاموي ، وكان جل هذه الحركات في بداية القرن الثاني يؤمن بافكار الخوارج ، وينسب الى احدى فرقهم ، وقد نجم عن حركات الخوارج نتائج كبيرة ، كان ابرزها قيام دولة الائمة الرستميين في تيهـرت (بمالة وهران الحالية في الجزائر) ودولة بني مدرار في سجلماسة في المغرب الاقصى ، ويمكن ان نضيف اليهما دولة برغواطة في المغرب الاقصى على شواطئ الاطلسي ، ايضا .

ودولة الائمة الرستميين الخارجية ، هي اول دولة « فارسية » تأسست في الاسلام ، وقد أسس هذه الدولة سنة ١٤٤ هـ / ٧٦١ م عبد الرحمن بن رستم ، الذي كان ايراني الاصل ، قدم المغرب بعد فتحه ، والتحق بجماعات الاباضية من خوارج المغرب ، وكان راسهم يعرف بابي الخطاب ، وقد استقر ابو الخطاب في وقت تأسيس الدولة العباسية في طرابلس الغرب .

وفي هذا الوقت كان قد تغلب على جزء كبير من المغرب حبيب بن عبد الرحمن الفهري ، وظل هكذا حتى قهرته قبيلة ورفجومة البربرية ، وغلبته على امره ، وقامت هذه القبيلة بزعامة عاصم بن جميل باقتحام مدينة القيروان ، فقتلت كل قرشي كان فيها ، واستباحتها واستهانت بحرمه مساجدها .

واغضبت هذه الفعلة الشنعاء ابو الخطاب الاباضي ، فتحرك من طرابلس الى القيروان فاحتلها ، وجاء هذا في وقت وصلت فيه اخبار افريقية الى مسامع ابي

جعفر المنصور ، فقام بإرسال جيش كبير بقيادة محمد بن الأشعث ، نحو المغرب ، وكلفه بإبعاد خطر الخوارج عن مصر ، والعمل على تشتيت قواهم في المغرب .

وحين علم أبو الخطاب بأخبار حملة ابن الأشعث ، غادر القيروان نحو طرابلس ، وأتاب في القيروان عبد الرحمن بن رستم ، وبعد معارك طاحنة هزم ابن الأشعث جيوش الإباضية ، وقتل زعيمهم أبو الخطاب ، ثم توجه نحو القيروان ، فخرج منها ابن رستم فاراً مع ثلثة من رجال الإباضية ، ولاحقته قوات ابن الأشعث ، ولم يكن معه ورجاله إلا فرس واحد ، فمات ببعض الطريق ، ودفنوه مخافة أن يقتفى أثرهم ، فيطمع فيهم من يتبعهم ، ويجتهد في طلبهم ، أن علم بموت فرسهم ، وقد ضعفت قوة الشيخ عبد الرحمن فصار يحمله عبده تارة وابنه تارة ، فإذا حمله العبد قال له عبد الوهاب : ان أدركنا العدو فلا تضعن أبي إلا دون خمسمائة أو نحوها ، فإذا أعيا العبد حمله عبد الوهاب ، فقال له العبد مثل ذلك .

وتابع عبد الرحمن فراره حتى التجأ الى جبل اسمه « سوف أجج » وكان جبلا منيعا ، ومن هناك راسل بقايا إباضية إفريقية وإباضية نفوسة طرابلس ، فليحقوا به ، وكثر من جديد عدد أتباعه « وتسامع ابن الأشعث بخبر عبد الرحمن ، واجتماع الناس عليه فأقبل مجدا في طلبه ، فأخبر أنه في جبل منيع يقال له سوف أجج ، فقصده حتى وصله ، وحاصر عبد الرحمن بن رستم وأحرق على عسكره في حصاره إياه ، مخافة أن يفاجئهم عبد الرحمن ومن معه . . . ويطرق عليهم بليل ، فأطال المقام تحته ، فوخم عسكر ابن الأشعث ، ووقع فيه الجدري ، فمات منهم بشر كثير ، وجمع ابن الأشعث أصحابه وقال لهم : ان هؤلاء القوم في جبل منيع . . . لا يدخله إلا دارع ، أو مدجج ، ماذا ترون فأشار عليه بعضهم بالإقامة ، وأشار عليه آخرون بالارنحال عنهم ، فأخذ برأي الذين أشاروا عليه بالارنحال ، فارتحل الى مدينة القيروان ، وقد آيس من عبد الرحمن وأصحابه .» .

وبعد رحيل ابن الأشعث نزل عبد الرحمن بن رستم من الجبل ، وشرع بارتياح مكان في الداخل يتخذه الإباضية مقرا لهم ، بعيدا عن القيروان وغيرها من الحواضر ، قريبا من منازل القبائل . لذلك اتجه نحو الغرب ، وأرسل رجالا من ذوي المعرفة وفرقهم في الجهات ، ولدى استكمال عملية البحث هذه نزل كما هو مرجح سنة ١٦١ هـ / ٧٧٨ في غيضة في سفح جبل جزول ، فاختار منها موقعا مربعا لا شعراء فيه ، فنزل فيه ، فقالت البربر : نزل تيهرت (وتفسيره الدف لتربيعة) . واختط عبد الرحمن موضع مدينة جديدة ، أو بشكل أدق موضع معسكر جديد للإباضية ، واستعمل خشب الغابة في بناء المسجد وأكواخ المعسكر ، وسرعان

ما تطور هذا المعسكر وتحول الى مدينة ذات منازل واسعة وقصور وأسواق ،
وطارت شهرتها .

وفي الادب التاريخي للاباضية روايات ضافية التفاصيل حول تأسيس تيهرت ،
متأثرة بالروايات التي تحدثت عن تأسيس القيروان من قبل عقبة بن نافع ، ففي
كتاب طبقات المشايخ للدرجيني ، ان الاباضية عندما « اتفقوا على عمارتها (تيهert)
أمروا مناديا ينادي بسباعها ووحوشها وهوامها ان اخرجوا ، فانا أردنا عمارة هذه
الارض ، فأجلوها ثلاثة ايام ، وبلغنا انهم رأوا وحوشها تحمل اولادها خارجة بها
منها ، فكان ذلك سما رغبتهم في عمارتها ، وقوى عزيمتهم على انشائها » . ولعل الذي
سبب خروج الحيوانات من وسط الغابة التي اختيرت لتكون ارض معسكر ، ثم
مدينة جديدة ، هو ان الاباضية « اطلقوا النيران فاحترقت اشجارها » والطريف
هنا ما تجمع المصادر المبكرة في الحديث حوله : مسألة التخلص من جذور الاشجار
بعد احراق جذوعها ، فقد جاء أن الاباضية « عمدوا الى حيس (دقيق) فلوهبعسل
وجعلوا تحت أصل كل شجرة منها شيئاً قليلاً ، فلما جن الليل طرقت الخزائير تلك
الاصول ، فجعلت تتبع رائحة الحيس ، وتحفر تحت الاصول ، حتى اتت على
آخرها ، فلما أصبحوا وجدوها مقتلعة ، فعمدوا الى مكان فأصلحوه لصلاتهم ، فلما
ارادوا ببناءه ، وقع اختيارهم على اربعة مواضع فأقرعوا عليها ، ايها يجعل المسجد
الجامع ، فوقع القرعة على المكان الاول ، الذي أصلحوه لصلاتهم ، فبنوا الجامع به » .

وعندما وقع الاختيار على موقع المدينة الجديدة ، روعيت مسألة توافر المياه ،
ولهذا وصفت فيما بعد بأنها واقعة « على نهر يأتيها من جهة القبلة ، ونهر آخر
يجري من عيون تجتمع ، تسمى (نافس) ومنها شرب بساينها ، وهي في شيء ،
وفيها جميع الثمار ، وهي شديدة البرد كثيرة الغيوم ، والثلج » وقد وصف أحد
شعراء تيهرت مدينته في القرن الثالث بقوله :

| | |
|--------------------------|-------------------------|
| ما أحسن البرد وريعانه | وأطرف الشمس بتاهرت |
| تبدو من الغيم اذا ما بدت | كانها تنشر من تحت |
| فنحن في بحر بلالجة | تجري بنا الريح على السم |
| نفرح بالشمس اذا ما بدت | كفرحة الدمى بالسبت |

وبرد تيهرت مرده الى انها تقع على ارتفاع / ١١٠٠ م / وكانت تشرف على منطقة
سهول منداس ، وعلى الطريق الموصلة من هذه المنطقة الى ساحل البحر الابيض
المتوسط ، عابرة لسهول وادي شلف . وجعل منها وجودها قرب منطقة سباسب

شاسعة صالحة للرعي ، مركزا لاتصال مستمر بين البدو الرحل ، وسكان المدن والبلدان والقرى . وكان هذا من العوامل التي ساعدت فيما بعد على ازدهار الحركة التجارية فيها . يضاف الى هذا أنه انتهى قرب تيهرت طرف جبل ونشريس ، الذي سكنته قبائل من البربر كثيرة .

خطط للمدينة الجديدة أربعة ابواب ، وواضح أن عبد الرحمن بن رستم لم يؤسس مدينته الجديدة في بقعة غير مأهولة ، بل في منطقة كثيفة السكان ، لكن بلا حواضر كبيرة ، يضاف الى هذا أن اختيار عبد الرحمن لموقع مدينته لم يأت بدعا ، فعلى بعد خمسة أميال فقط من مدينته الجديدة ، كان يوجد بقايا مدينة عرفت في عهود ما قبل الاسلام ، وربما في العصر الروماني ، وباتت تدعى الآن باسم تيهرت القديمة .

لحسن الحظ أن الادب الاباضي غني بالكتابات التاريخية المفيدة ، لكن من المفيد أن نبين هنا أنه على أهمية المواد الاباضية ، فإن أحسن المواد عن تيهرت وتطور تاريخها نجده لدى واحد من المؤرخين الافارقة من غير الاباضية ، وهو ابن الصغير المالكي القيرواني . عاش ابن الصغير بين الاباضية ، وجمع أخبار دولة تيهرت ، وتحرى في سردها الصدق والحياد ، بعدما اخذ على نفسه : « لا أحرفها عن معانيها ، ولا أزيد فيها ولا أنقص منها اذ النقص في الخبر والزيادة فيه ليس من شيم ذوي المروءات ، ولا من اخلاق ذوي الديانات ، وان كنا للقوم مبغضين ، ولسيرهم كارهين ، ولذاهبهم مستقلين ، فنحن وان ذكرنا سيرهم على ما اتصل بنا ، وعدلهم فيما ولوه فلسنا ممن تعجبه طلاوة أفعالهم ، ولا حسن سيرهم ، لما نعلمه من براءتهم ممن والاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : من كنت مولاه فعلي مولاه » .

وبعدما استقرت احوال الاباضية في تيهرت « اجتمع رؤساؤهم فقالوا : قد علمتم أنه لا يقيم امرنا الا امام نرجع اليه في احكامنا ، وينصف مظلومنا من ظالما ، ويقيم لنا صلاتنا ، وتؤدي اليه زكاتنا ، ويقسم فينا ، فقبلوا امرهم فيما بينهم فوجدوا كل قبيل منهم فيه رأس او رأسان ، او أكثر يدبر أمر القبيل ، ويستحق امر الامامة ، وقال بعضهم لبعض انتم رؤساء ولا نأمن من أن يتقدم واحد على صاحبه فتفسد نيته ، ولعل المقدم أن يرفع أهل بيته وعشيرته على غيرهم ، فتفسد النيات ، ويكثر الاختلاف ، ويقل الائتلاف ، ولكن هذا عبد الرحمن بن رستم لا قبيلة له يشرف بها ، ولا عشيرة له تحميه ، وقد كان الامام أبو الخطاب رضي لكم عبد الرحمن قاضيا وناظرا ، فقلدوه أموركم ، فان عدل فذلك الذي أردتم ، وان سار فيكم بغير عدل عزلتموه ، ولم تكن له قبيلة تمنعه » .

وهكذا قام خوارج تيهرت بمبايعة عبد الرحمن بن رستم بالامامة ، وعلى هذا أسس ابن رستم في آن واحد مدينة جديدة ، ودولة جديدة ، وحتى أسرة حاكمة جديدة .

وانتشرت بسرعة أخبار تأسيس الامامة الجديدة مع قيام تيهرت ، فنالت الولاء من خوارج المغرب الأدنى والوسط ، خاصة من سكان جبال نفوسة وأهل جزيرة جربة ، وبلغت هذه الاخبار مسامع الخوارج في المشرق ، خاصة في البصرة وعمان ، فجمع خوارج البصرة « أموالا عظيمة وبعثوا بها مع نفر من ثقاتهم ، وقال بعضهم لبعض : قد ظهر بالمغرب امام ملاء عدلا ، وسوف يملك المشرق ويملاؤه عدلا ، فانهضوا اليه بما معكم من هذه الاموال ، حتى تردوا المدينة التي سكنها ، فان كان على ما نزل لنا من حسن طريقته ، وصحة سيرته ، فادفعوها اليه ، وإن كان على غير ذلك فانظروا الى أفعاله وما يتولاه من الاحكام بين رعيته ، ثم اتونا بذلك كله ، فمضى القوم حتى اتوا المدينة ... فأنأخوا جمالهم ، ووضعوا احمالهم ، وتقدموا .. يسألون كل من لقوه من الناس عن دار الامام عبد الرحمن حتى وقفوا عليها ، وأصابوا عند بابها غلاما يعجن طينا ، ورجلا على سطح يصلح شقاقا فيه ، والغلام يناوله ما يصلح به ، فسلموا على الغلام ، فرد السلام ، ثم قالوا : هذه دار الامام ؟ فقال : نعم ، فقالوا له : استأذن لنا ، وأعلمه أنا رسل اخوانه اليه من البصرة ، فرفع الغلام رأسه الى سيده ، وقد علم أنه سمع كلامهم ، فقال قل للقوم يصبرون قليلا ، ثم أقبل على ما كان عليه من اصلاح عمله ، حتى انقضى ، والقوم ينظرون اليه ، وهم شاكون فيه هل هو صاحبهم أم لا ، حتى نزل عن سطحه الى داره ، فغسل ما كان بيديه من اثر الطين ، ثم توضأ وضوء الصلاة فأذن للقوم ، فدخلوا عليه ، فوجدوا رجلا جالسا على حصير فوقه جلد ، وليس في بيته شيء سوى وسادته التي ينام عليها وسيفه ورمحه ، وفرس مربوط في ناحية من داره ، فسلموا عليه وأعلموه أنهم رسل اخوانه اليه ، فأمر غلامه باحضار طعامه ، فأثاه بمائدة عليها قرص سخنت وسمن وشيء من ملح ، فأمر بتلك القرص فهشمت ، وأمر بالسمن فلتت به ، ثم قال على اسم الله ادنوا ، وكلوا ، ثم أكل معهم بأكملهم ، فلما انقضى طعامهم قال : ما مرادكم ، وما جاء بكم ؟ « وقبل أن يجيبوه « استأذنوا للتنجي عنه للنجوى ، فأذن لهم ، فتناجوا واتفقوا أن يدفعوا له المال ، وأنهم بما عاينوه من أحواله راضون » فلما وصلت الاموال اعطيت لعبد الرحمن ، فقام بناء على مشورة أصحابه بتوزيع بعضها على الفقراء واشترى بالباقي سلاحا ومعدات .

وكان لهذه الصورة العمرية بمثالياتها عظيم الآثار ، حيث لما رجعت الرسائل الى المشرق طارت اخبار عبد الرحمن وامامته ومدينته ، فقصدها مجموعات كبيرة

من خوارج المشرق ، مع جماعات من الايرانيين ، الى دعاة لمختلف احزاب وفرق العالم الاسلامي ، وخاصة الواسلية من المعتزلة ، الى بعض التجار واصحاب الصناعات وارباب الحرف .

ونشطت حركة الهجرة الى هذه المدينة الناشئة ، وعظم عدد المهاجرين اليها من غير الخوارج ، وصار المهاجرون والتجار ينون فيها البيوت الضخمة والقصور والاسواق ، والمتاجر . وصحیح ان المدينة قامت في الاصل لتلبية حاجات الاباضية ، لكن سرعان ما استقر بها فئات من السنة والمعتزلة ، خاصة الواسلية ، وبنى هؤلاء مساكنهم ومساجدهم . ويقول ابن الصغير واصفا بسرعة تطور تيهرت : « واتتهم الوفود والرفاق من كل الامصار ، واقاصي الاقطار ، فقال ليس احد ينزل بهم من الغرباء الا استوطن معهم وابتنى بين اظهارهم لما يرى من رخاء البلد ، وحسن سيرة امامه وعدله في رعيته ، وامانه على نفسه وماله ، حتى لا ترى دارا الا قيل هذه لفلان الكوفي ، وهذه لفلان البصري ، وهذه لفلان القروي ، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم ، وهذا مسجد البصريين ، وهذا مسجد الكوفيين ، واستعملت السبل الى بلد السودان والى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الامتعة » .

وبسرعة مدهشة تحولت المدينة الجديدة من معسكر عبد الرحمن الى مدينة كبيرة ، ومن مقر امامة مثالية زاهدة الى مقر دولة ودار ملك فخم ، وكثرت الاموال وعظمت الثروات ، وبينما هذا كله يحدث في المغرب ، كان خوارج المشرق يعيشون مع الصورة التي حملها اليهم الرسل ، وكانوا يقولون بعضهم لبعض : « امامكم بالمغرب ، خلف من ابي بلال مرداس بن ابيه ، ومن ابي حمزة الشاري » . واستمرت اعمال جمع الاموال لتبعث الى تيهرت للمساعدة ، وبالفعل تجمعت لدى خوارج البصرة كمية من المال قرروا مجددا ارسالها الى المغرب .

وحين قرر البصريون بعث المال : « ارسلوا الى رسلهم الاولين واعلموهم بما جمعوه من المال ، وان ذلك كله في سر وخفاء من العمال والاجناد ، لئلا يطلعوا عليهم ، فيهلكوهم ، وسألوهم كتمان ذلك ، فاجابتهم الرسل الى ما دعوهم اليه من حمل الاحمال وتوجيههم بها الى عبد الرحمن ، فلم تزل بذلك حتى اتت البلد ، ونزلت بالموضع الذي نزلت به اولا ، ثم توجهت نحو عبد الرحمن ، فوجدوا الامور قد تبدلت ، واحوال المدينة والاشياء قد حالت ، وذلك انهم نظروا الى قصور قد بنيت ، والى بساتين قد غرست ، والى ارحاء قد نصبت ، والى خيول قد ركبت ، والى حفدة قد اتخذت الستور والعبيد ، والخدام قد كثرت ، فلما راوا ذلك تحولت نياتهم » . ومع ذلك قصد الرسل دار عبد الرحمن فوجدوها قد تحولت

الى قصر منيف ، ومع هذا فقد لقوا عبد الرحمن « على ما عرفوا من التواضع »
وتيقنوا بعد السؤال انه « ما تغير ولا تبدل » فعند ذلك اعلموه بسبب قدومهم ،
وما حملوه معهم من الاموال ، فرفض قبولها ، وطلب ردها لتصرف بين فقراء خوارج
المشرق وقال : « انما كنا قبلنا ما قبلنا ... للحاجة التي كانت بنا .. والفاقة التي
لزمت عوام اخواننا ، فالان اننا مستغنون عن اموال غيرهم » .

وتبعاً لما لحق تيهرت من تطور تطورت فيها الحياة الاجتماعية ، وقام فيها
نشاط تجاري وزراعي كبير ، وازدهرت فيها الحياة الاقتصادية ، وتطورت بها في
نفس الوقت حركة ثقافية واسعة ، فغدت مركز اشعاع حضاري نحو قلب افريقيا ،
وباتت تعرف باسم « عراق المغرب » و « بلخ المغرب » .

وسادت الحرية الدينية في عاصمة الاباضية ، ومع ذلك لم ينس عبد الرحمن
ابن رستم تعاليم دعوته ، والمخاطر القادمة من القيروان ، لذلك استمر يحارب حكام
القيروان ، وقام بانشاء حلف مع خوارج سجلماصة على اطراف صحراء المغرب
الاقصى ، وحقق بذلك ، وبحسن سياسته ، وبفضل سلوكه الشخصي ، وتقشفه
في ملبسه ومأكله ومسكنه وتواضعه ، وكفاءة ادارته ، الاستقرار والقوة لدولته ،
فتألفت عليها القلوب ، وتجمعت فيها فرق اسلامية مختلفة النزعات والاصول ،
فكان بها خوارج من اباضية وصفرية ، كما كان فيها شيعة وسنة ومعتزلة ، يمثلون
مختلف قبائل البربر مع جماعات من العرب والعجم .

ولما ادركت عبد الرحمن الوفاة سنة ١٦٨ هـ / ٧٨٤ م جعل الامر من بعده
« شورى في ستة نفر كصنع عمر بن الخطاب رضي الله عنه » وكما ادخل عمر بن الخطاب
ابنه عبد الله مع الشورى له حق الترجيع دون الترشيح ، ادخل عبد الرحمن ابنه عبد
الوهاب انما مع حق الرشيح والانتخاب . فلما توفي عبد الرحمن ، وتداول القوم فيما
بينهم ، اختار اكثريتهم ابنه عبد الوهاب وهكذا تغلبت فكرة التوريث على فكرة
الانتخاب . وانكر بعض الاباضية ذلك ، فانفصلوا عن اباضية تيهرت ، فعرفوا بعد
ذلك بالنكсар . وسيكون لهؤلاء دور كبير جدا فيما بعد في الثورة ضد الخلافة
الفاطمية في المهدية .

وفي عودة الى الادب التاريخي الاباضي ، وهو أدب غني فيه مواد رفيعة ، نجد
ان النكار اعلنوا أولا عن معارضتهم لبيعة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم كلاميا
فقالوا : « نبايعه على شرط ان لا يقضي امرا دون جماعة معلومة » فقبل لهم « لانعلم
في الامامة شرطا غير ان يحكم فينا بكتاب الله وسنة نبيه » . ولم يقنع النكار واثاروا

جدلا طويلا حول مسألة الامامة واحقية الوصول اليها ، والشروط التي ينبغي ان يتمتع بها الامام . لقد كان الصراع بين الاباضية صراع بين الخوارج « الجمهوريين » والخوارج « الملكيين » ، ومثل الفئة الاولى رجال القبائل ، ومثل الفئة الثانية غالبية اهل مدينة تيهرت .

وكان من عادة قبائل البربر الانتجاع في مطلع الربيع من كل سنة نحو تيهرت . فلما كان ربيع السنة التي اختير فيها عبد الوهاب انتجعوا « اكمل انتجاع انتجعوه قط » وكان على رأس القبائل المنتجعة مزاته وسدراته ، ودخل زعماء هذه القبائل الى تيهرت فاجتمع اليهم زعماء المعارضة ، وقالوا لهم : « ان الامور قد تغيرت ، والاحوال قد تبدلت ، قاضينا جائر ، وصاحب بيت مالنا خائن ، وصاحب شرطتنا فاسق ، وامامنا لا يفر من ذلك شيئا » وذهب زعماء القبائل الى الامام عبد الوهاب ورفعوا اليه ما سمعوه فتجاوب معهم وأظهر أنه على استعداد لتغيير سياسته وعزل من رغبوا بعزله ، وقال لهم : « قدموا من رأيتم واخروا من رأيتم ، فدعوا له واثنوا عليه ، فقالوا خيرا ، ثم انصرفوا ، فلما انصرفوا دخل على عبد الوهاب وجوه رجاله وقواده واهل بطانته ، فقالوا : ما بال اخواننا اتوك اليوم باجمعهم ، فأخلت لهم مجلسك ، وحجبت من سواهم ، فذكر لهم ما قالوا له ، وما أشاروا عليه ، فقالوا له : وما أجبتهم به فذكر لهم جوابه ، فقالوا له : أسأت الى نفسك والينا ، والى جميع اخوانك ورجالك ، فقال : وكيف ذلك ، وما سألوا شططا ، وما قالوا الا خيرا فقالوا : ليس نظرهم عندما قلت ، ولا معناهم عندما رأيت ، ولكن سألوك ان تعزل قاضيك وصاحب بيت مالك ، والقائم بشرطتك ، فاذا فعلت ذلك شكروك وحمدوك ، ثم أتوك بعد ذلك ، فقالوا لك : ان المسلمين قد تقموا عليك أشياء ، أو على ولديك ، فان أجبتهم الى ذلك شكروك وحمدوك ، وان أبیت لهم من ذلك خلعوك ونبدوك ، ثم لا تأمن ، ولو أجبتهم الى كل ما سألوك أن يأتوك فيقولوا لك : ان المسلمين في ابتداء امرك لم يجتمعوا عليك ، فانخلع واردد اليهم امرهم ، فان اجتمعوا عليك جملة فزت بحظك ، وكان ذلك زيادة لك في شرفك » .

وانصت عبد الوهاب لهذه الآراء وبذل موافقه ، وهكذا اشتد الجدل بين الاباضية وقاد ذلك الى انشطارتهم الى فئتين : وهبية ، ونكارية ، وتزعّم النكارية أحد رجال الستة من الشورى واسمه يزيد بن فندين ، وكان يزيد هذا من كبار شيوخ الخوارج ، ومن عارض بيعة عبد الوهاب ، وطالب بتأسيس مجلس من اهل الحل والعقد يعهد اليه بمهمة اختيار الامام ، الذي عليه ان يخضع لاوامره ، وهكذا لما رفض رايه ، وأخفقت ضغوطه القبلية حمل هو وانصاره السلاح في وجهه عبيد

الوهاب وشيعته . والمدهش في هذا النزاع هو تورط الفئات الاخرى من غير الاباضية فيه .

فقد كان من اكبر الفئات في ضواحي تيهرت جماعة الواسلية من المعتزلة ، وقد رأى الواسلية ما رآه النكار وابن فندين ، وجرت بين ابن فندين وبين عبد الوهاب معارك طاحنة قتل فيها ابن لعبد الوهاب ، وكاد ابن فندين أن ينتصر فيها ، لولا أن تجارب التاريخ الاسلامي أعادت هنا نفسها ثانية بشكل غريب جدا ، فمسألة الشورى العمرية نالها بعض التعديل ، لكن المسألة الآن هي أن الاباضية استعاروا تجربة التحكيم ، وهي تجربة رفضت من قبل أسلاف الخوارج ، لقد لجأ عبد الوهاب ابن رستم الى التحكيم ، ناسيا وشيعته أو متناسيا أن الاصل في قيام الخوارج ، هو الخروج على قرار التحكيم يوم صفين . وكما حدث في التحكيم الاول حين رجحت كفة البراعة السياسية المدعومة بالقوة المنظمة ، رجحت الآن كفة عبد الوهاب ، وانهزم المنشقون مستنكرين لما حصل ، متنكرين لامامة عبد الوهاب ، وانعزلوا عن الامامة الرستمية ، وهكذا غلب عليهم اسم « النكار » .

لقد انتصر عبد الوهاب بن رستم ، بدهائه وحنكته وقوته ، على خصومه ، وكما قال ابن الصغير : « استملك الامر لعبد الوهاب ، وبقيت حزازات النفوس في قلوب عشائره من قتل ، ثم اشتد أمر عبد الوهاب ، وقوى عليه ، وانتقل من حال الامامة الى حال الملك » .

ومع تحول عبد الوهاب « من حال الامامة الى حال الملك » عمل على معالجة مشكلة القبائل البربرية التي أشار ابن الصغير الى بقاء حزازات في قلوبها ، معالجة سياسية بارعة ، فسعى الى اخضاع جميع القبائل التي ، رغم هزيمتها ، رفضت الاعتراف به ، وظلت شاهرة السلاح في وجهه . وحسب الاعراف البدوية فان القبائل تتكتل باحلاف مصالح ومصاهرة لا بقائده ، وكان عبد الوهاب يدرك هذا ، وكان يعرف الوضع القبلي حول تيهرت ، فقد كانت أعظم القبائل حول المدينة كل من : هوارة ولواته . وعرف عبد الوهاب بمحاولات لانشاء حلف بين هاتين القبيلتين ، فخاف ذلك ، وعلم أيضا أن زعيم هوارة خطب ابنة زعيم لواته لنفسه ، فسارع عبد الوهاب ، فأحضر شيخ لواته « وخطب اليه ابنته ، فزوجه اياها » واغضب هذا زعيم هواره « فقال : عمل علي في جارية خطبتها ورضي الى بتزويجها ، فانتزعها مني بسلطانه ، لاسكنت بأرض هوابها ، وغضبت عشيرته لغضبه ، فارتحل نحو المغرب حتى نزل بوادي هواره ، وبينه وبين المدينة نحو من عشرة اميال أو أكثر » .

اقامت هوارة معسكرا كبيرا انحشرت اليه جميع فروع القبيلة ، وتحول هذا المعسكر الى شبه مدينة جديدة مهددة لحياء ووجود تيهرت . وقام عبد الوهاب بجشيد الجيوش ضد هوارة ، وزحف ضد معسكرها ، وكانت معركة دموية . ويقول ابن الصفيير الذي شهد هذه الاحداث : « فكان قتال شديد ، له غبار سد ما بين البخافقين ، قال : وعبد الوهاب ينظر يمينا وشمالا او قلبا ، فاذا صرف نظره ذات اليمين رأى فارسا ، فيقول : من الفارس هذا قد جفل الناس ؟ فيقال له : ابنك افلح ، قال : واذا صرف بصره ذات اليسار رأى مثل ذلك ، فيقول : من الفارس ، فيقال له : ابنك افلح ، قالوا : اذا صرف بصره في القلب رأى مثل ذلك فيقول : من الفارس ، فيقال له : ابنك افلح ، قال : لقد استحق افلح الامامة ، فكان اول يوم عقدت له الامامة » ، وبعد طول قتال انتصر عبد الوهاب ، « وقتل في ذلك اليوم خلق كثير وامم من الامم ، وكان القتل في هوارة افضح واشنع » .

لقد زائنا حتى الآن كيف تطور الحال بهذه الدولة ، فبعد ما كان عبد الرحمن بن رستم قد بدأ بمثالية عمرية ، تحول وتغير ، انما ظل يختار لدولته ذوي المقدرة والكفاءة من الرجال المتصفين بالعدل والانصاف ، صار ابنه عبد الوهاب لا يهتم من هذا كله الا ما كان فيه التدعيم لسلطانه ودولته التي قبض على ناصيتها بكلتا اليدين ، ومع انه كان في عهد أبيه مثالا للرجل الصالح ، لدرجة انه كان قد رشح الى منصب الامامة عن جدارة منذ ايام أبيه ، لكنه ما أن ولي الحكم ، وقامت في وجهه أعمال المعارضة والثورات حتى خلع عن نفسه جلباب المثالية ، وتحول من الامامة الى الملك ، فتدزغ بدرع السياسة الفولاذي الذي لا مكان للعواطف لديه ، ولا يتأثر الا بما تمليه المصلحة ، ولا تنفذ فيه سهام الخلق والضمير وغير ذلك من أسلحة الضعفاء ، فبرز عبد الوهاب على المسرح رجلا جبارا عنيدا ، وسياسيا قويا لا يترتب ولا يتردد في ضرب الرؤوس بعضها ببعض ، ولا يتورع عن الاعتماد على سياسة فرق تسد ، فهو على هذا حين حول الامامة الرستمية الى ملك مثل غيره ، سهل عليه السير على طريق الملوك الذين تربط سياستهم بمصالح الملك لا بمبادئ العقيدة ، ذلك أن السياسة لدى الائمة مفترض انها ترتبط بمثل العقيدة ، وهذا التحول يجعل المؤرخ يواجه مشكلة تحتاج الى حل مقنع وتفسير مسوغ بشكل منطقي : هل تحول السلطة الرجال وتقلبهم مما يشبه الايمان الى ما يشبه الكفر ، من الاستقامة الى الاعوجاج ، من المثل الى الدناء والبراعة ؟

المفترض أن السلطة وسيلة لتنفيذ المبادئ وطريق نحو العدالة والمساواة ورفع الحيف ! واذا كان التاريخ تدوين اخبار ما وقع لا ما يتمناه المرء لو أنه وقع ، فهذا ما حصل في تجربة الامامة الاباضية ، وقد حدث نظيره في مختلف يقاع وادوار تاريخ العرب والاسلام ...

لقد حارب عبد الوهاب بن رستم المنشقين عليه من الاباضية ، وهادن في نفس الوقت السلطات العباسية في القيروان ، فوداع روح بن حاتم بن قبيصة المهلبى سنة احدى وسبعين ومائة (٧٨٧ م) ، وبذلك أمن على دولته من ولاية افريقية ، وتفرغ لجمع جيش خاص به ولتنظيمه ، حتى « اجتمع له من أمر الاباضية وغيرهم مالم يجتمع للاباضية قبله ، ودان له مالم يدن لغيره واجتمع له من الجيوش والحفدة مالم يجتمع لاحد قبله » وامتد ملكه من طرابلس الى تلمسان ، فكان ملكه « ملكا ضخما ، وسلطانا قاهرا » .

ولدى شعور عبد الوهاب بأنه بات لديه ما يكفي من القوة والاستقرار ، تخلى عن موادة أمراء افريقية ، وكان قد تأسس في القيروان ملك الاغالبة ، فقام عبد الوهاب سنة ١٦٩هـ / ٨١٢م بمهاجمة ابي العباس عبد الله بن ابراهيم الاغلبى أمير افريقية ، وحاصره في مدينة طرابلس ، وشدد عليه الحصار وأطاله حتى توفي الامير ابراهيم الاغلبى ، فقام ابنه وخليفته المحاصر بالتفاوض مع عبد الوهاب ، وتم الاتفاق على رفع الحصار عن طرابلس على أن تبقى المدينة وبحرها للاغالبة ، وما وراء ذلك لعبد الوهاب ، وعاد عبد الوهاب بعد ذلك الى جبال نفوسة ، وقد امتد سلطانه ، وانطوت القبائل البربرية تحت سلطانه ، حتى قبيلة هوراة نفسها التي كانت تحاربه أخذت تستنجد به في حروبها ضد الاغالبة ، وعلى الرغم مما حققه عبد الوهاب من انتصارات على الاغالبة ، فقد ظل يخشاهم ، لذلك سعى الى حصار دولتهم بعدد من التحالفات ، فعد يده أولا الى دولة بني مدرار في سجلماسة ، ثم راسل الدولة الاموية في قرطبة الاندلس واتفق معها ضد الاغالبة ، وارسل سفارة من لدنه الى قرطبة ، استقبلت لدى وصولها استقبالا حافلا .

وكانت مملكة الادارسة قد تأسست في المغرب الاقصى سنة اثنتين وسبعين ومائة (٧٨٨ م) وفي سنة / ١٧٣هـ / استولى ادريس الاول على تلمسان ووصل الى تخوم دولة تيهرت ، وفي هذا الوقت قامت بعض فروع قبيلة زناته البربرية بالعرض على عبد الوهاب بأن ينضم الى المولى ادريس ، ويوحد دولته ويدمجها في الدولة الادريسية الجديدة ، فرفض ذلك . وكان بعد ما وصل ادريس الى منطقة جبال زرهون في المغرب الاقصى ، وصل أخوه سليمان من مصر ، وحل بتلمسان ، وأنشأ إمارة صغيرة ، وشغلت دولة تلمسان وظيفة الحجز ما بين الدولة الرستمية ودولة الادارسة ، أي كانت أشبه بما يسمى الآن Buffer state لذلك لم يسجل لنا المؤرخون أخبار مصادمات بين الرستميين والادارسة ، وعلى العنوم دام أيضا السلم بين عبد الوهاب بن رستم وأمير القيروان أبو العباس عبد الله الاغلبى .

لقد توسطت دولة تيهزت الان بين الاغلبة والادارسة وآل سليمان ، وتحالفت مع الامويين الذي راوا في نشاط هذه الدولة ما يدفع عنهم خطر الاغلبة ولاة الدولة العباسية ، وكان الاغلبة بدورهم وسط حصار بربري قبلي وسياسي دولي ، فدخل المغرب الرابع : الرستميون . بنو مدرار ، السليمانيون ، الادارسة ، لم تدن بالولاء للعباسيين ، وكان بنو الاغلب قد مارسوا البربر في حروبهم ضدهم ، فاذركوا منها ان لا طاقة لهم بحصد شوكة القبائل البربرية ، لذلك تركوها وشأنها ، وانصرفوا عن محاربتها ، مما اعطى الفرصة بعد فترة لدعاة الاسماعيلية للنشاط وسط كتامة ، القليلة القوة ، واثارتها لاسقاط دولة الاغلبة ، واقامة الخلافة الفاطمية .

لقد انصرف الاغلبة الى اصلاح شؤون دولتهم في الداخل ، بدلا من اضاعه جهودهم في وسط المغرب بدون جدوى ، وتوجهوا باهتماماتهم ، كما فعلت قرطاج من قبل ، نحو البحر الابيض المتوسط ، وركزوا خططهم على فتح جزيرة صقلية وكان لهم ذلك ، وكانت الخلافة العباسية في بغداد راضية عن سياسة الاغلبة ، قانعة بدورها بان تظل سدا بين ولاياتها في المشرق وبين الاندلس والدويلات المغربية الخارجة عن سلطانها ، لهذا شجع العباسيون الاغلبة ، وسمحوا لهم بالحكم على قاعدة قريبة من الاستقلال ، وفي هذا الوسط السياسي المتداخل كان وجود الدولة الرستمية لازما للحفاظ على التوازن بين دول المغرب وقبائله ، وعلى هذا الاساس نفهم رغبة عبد الوهاب بن رستم في موادة حكام القيروان ومشاركة الاغلبة له في نفس الرغبة ومشاطرتهم له .

وكان عبد الوهاب بن رستم كابيه عالما متضلعا في شؤون الدين ، وبذلك احتفظ بمركزه في امامة الإباضية - ماعدا النكار - وقد صنف كتابا اسمه « مسائل نفوسة الجبل » وكان هذا الكتاب اساسا للمدرسة الإباضية الرستمية ، وكان الى جانب ذلك يشجع الحركة العلمية في دولته ، ويجلب الكتب من الشرق ، وصار لديه مكتبة زاخرة بنفائس الكتب المتعددة الشاملة لمختلف الفنون والعلوم .

وبعد ما قضى عبد الوهاب أيام حكمه - وكانت زاخرة بجلال الاعمال - توفي سنة ثمان ومائتين (٨٢٣ م) فبويع ابنه ميمون ابو سعيد الافلح بالامامة بعده ، وكان كذلك مرشحا للامامة في حياة أبيه ، فلم يكن يقل عنه دهاء ومكرا وسعة حيلة ، وعلى ذلك استطاع - باتباع تعاليم أبيه وسياسته المتقلبة - أن يقبض على زمام الملك طيلة خمسين سنة .

وفي البداية سالم الافلح جيرانه الاغلبة ، لكن أبا العباس محمد بن الاغلب بن ابراهيم تصور أن بإمكانه التغلب على دوله تيهزت ، ووفقا لذلك أقدم على بناء مدينة

بجوارها وسماها « بالعباسية ». نسبة اليه ، وإراد منها ان يأخذ بمخفق تيهرت ، فتوجه اليها الافلح واخربها سنة سبع وعشرين ومائتين (٨٤٢ م) .

لقد سلف واشرنا الى ان الاغالبية بعدما مارسوا البربر في الحروب الرستمية والادريسية ادركوا ان لاجدوى من محاربة هؤلاء ، وانه من الانفع لهم مسالمتهم والانصراف نحو اضلاع شؤونهم الداخية ، فعملوا على ذلك ، ووطدوا العزم على اقرار دولتهم التي صارت تستقل عن بغداد شيئا فشيئا ، وتخلل ذلك بعض الفتن داخل البيت المالك ، لكن هذه القلاقل لم يطل بها الامد ، وسرعان ما رجعت الامور الى نصابها ، واستعاد الاغالبية نشاطهم ، وثبتوا دعائم دولتهم من جديد ، وهنا امتدت انظارهم عبر البحار ، وصارت اساطيلهم تدهم بعض جزر البحر المتوسط مع شواطئ ايطاليا ، وقلبها حتى روما أحيانا ، ونشطت اساطيل الاغالبية القوية ضد صقلية - قسرينية وكورسيكا ولا شك ان هذا النشاط بعث السرور لدى العباسيين ونال رضاهم سيما والعلاقات العباسية البيزنطية كانت في غاية السوء ، والحروب بين الطرفين شديدة .

وفي هذا الوقت تمكنت جماعة اندلسية الاصل من اختلال جزيرة كريت ، واعترفت بسلطان الخليفة العباسي ، لكرائها للحكم في قرطبة الذي أجبرها على الهجرة منها اثر حادثة الربض المشهورة .

وكان للنشاط الاغلبى في البحر المتوسط ردات فعل حذره لدى الامويين في الاندلس ، فهم باتوا يخشون على شواطئهم ، وخافوا ان يستولي الاغالبية على جزر البليارد التي دانت بالطاعة لهم ، لهذا نجد الامير الحكم الربضي واصل الادارسة فبعث بوفد الى المولى ادريس الثاني هناك بمبايعته بالخلافة والامامة ، وفاتحه بالتحالف ضد الاغالبية والعباسيين ، لكن العلاقة بين الادارسة والامويين لم يتح لها التطور والتعمق ، فالمولى ادريس الثاني قام بانشاء مدينة فاس في بقعة كانت موطن لجماعات من اهل ربض قرطبة الذين ثاروا على الامير الحكم وطردها من الاندلس . ثم ان مدينة فاس - او بالحري شطر من شطريها - صاردار هجرة لجماعات قدمت من القيروان (هي التي أسست جامع القرويين الشهير) ، وقد عادى هؤلاء الحكم الاموي في قرطبة .

وبعد وفاة الحكم الربضي (٢٠٦ هـ / ٨٢١ م) ثم المولى ادريس الثاني (٢١٣ هـ / ٨٢٨ م) تحسنت العلاقات بين الاندلس ودول الشمال الافريقي : الادارسة ، الرستميون ، برغواطه ، سجلماسة ، النكور ، وصار هناك تفاهم سياسي ضد الاغالبية ، وكان الوضع الداخلي في الاندلس يعاني من الاضطرابات ، ولم يكن الامويون يملكون

قوة بحرية تعادل قوة الاغالبية ، وباتت شواطئ الاندلس معرضه لخطر الاغالبية ، وخطر اوريبي جديد جاء مع اساطيل الفيكونغ ، لهذا جهدت قرطبة في الضغط على الاغالبية من داخل المغرب .

ويروى انه عندما اخرب الرستميون مدينة العباسية سارعوا الى اخبار قرطبة وزفوا اليها البشرى ، فبعثت بمعونة مالية قدرها /مائة ألف دينار/ للامير الرستمي مكافاة له على الايقاع بالاغالبية .

وسلف بنا القول بأن افلح بن عبد الوهاب كان لا يقل في دهائه عن ابيه ، ومفيد ان نضيف الى هذا انه كان لا يقل عنه علما ، وانه اشتهر بالادب وتذوقه اكثر منه . وتحدث الدرجيني في كتابه طبقات المشايخ عن هذا بشكل مفصل ، واثبت له الباروني قصيدة طويلة في فضل العلم ومزاياه والحض على نيل العلم واكتساب المعرفة ، ويعلمه صار افلح رأسا للخوارج الاباضية والصفيرية بالمغرب ، وبالعلم ايضا صار رأسا للواصلية المعتزلة .

ووادع افلح جيرانه ما وادعوه وتقرب من حكام الاندلس ، واعتمد في سلطانه وادارته على الفرس الذين كثرت أعدادهم في تيهرت ، وأسند لهؤلاء الفرس قيادة قواته مع اسمى المناصب في الدولة ، كما أن المرافق الاقتصادية والتجارية والاموال صارت حكرا على الفرس ، وكون الفرس في هذا الوسط الغريب نوعا من الاستقلال الخاص ، حتى أن أحد التجار منهم واسمه ابن وردة بنى سوقا سماه باسمه ، وكان له حرسه الخاص ، وتمتع في نفس الوقت بمنصب رئيس الشرطة لذلك سخر فرقة من الشرطة لحماية سوقه وحراسته .

واعتماده على الفرس افاده كثيرا ، ومكنه من النجاح السياسي والاستقرار الداخلي ، فنعم بالهناء والرخاء في قصده ، وشمل هذا الهناء شعب تيهرت ، واتباع الدولة فراكنوا الى الراحة والدعة ، وانتشر في تيهرت البذخ ، وعم الترف ، فقاد ذلك الى حياة اللهو والمجون ، وانغمس الناس في هذه الحياة ، مما كان له سيء الآثار . فقد بدأت بوادر الانحلال تلوح في الافق ، ولحق هذا ظهور الخصومات خاصة بين الفرس ورجال قبائل زناته ، وهنا عادت تلك السياسة التي خطها أبوه عليه وعلى الدولة بالوبال ، ذلك أنه لم يتمكن من الافادة منها كما فعل أبوه ، لانه كان يعوزه تلك الشخصية القوية التي تركب الصعاب وتواجه معقدات الامور بعزم وقوة وثبات وصرامة ، فالدهاء لوحده مدعوما بالمكر غالبا ما يأتي على صاحبه بأسوأ العواقب ، ومع هذا واجه افلح بدايات المشاكل واستطاع أن يؤجل انفجارها لكنه ما أن قضى

نحبه حتى ثار بركان الفتن ، وصار ملوك تيهرت في وسط تيار الخصومات تتقاذفهم الامواج وتعبث بهم ايدي المتخاصمين والمتآمرين ، وانبعثت الخصومات القبلية من جديد وبشكل حاد ، وقويت القبائل بعضها على بعض ، ففرض المنتصر ملكا جديدا بعدما عزل واحدا قديما ، وذلك بصرف النظر عما تمتع به هؤلاء الملوك من مواهب ، ان وجدت المواهب ، لهذا عجز ملوك تيهرت بعد افلح عن السيطرة على المواقف ولم يستطيعوا الصمود في وجه الحوادث والتضدي لها .

توفي ابو سعيد ميمون الافلح سنة ٢٥٨هـ / ٨٧٢م ، فقام بالامر من بعده ابنه ابو بكر ، وكان هذا الامام ميالا الى الراحة والدعة مولعا بالادب ، لهذا ترك لاختيه ابي اليقظان وضره محمد بن عرفة امر تسيير دفة الدولة ، فكانت النتيجة عليهم رضا رؤساء الدولة من المشايخ ، فعملوا على اغتياله ، بعدما فجروا ضده فتنة اخرجته من تيهرت ، فاستولى عليها محمد بن مسالة الهواري بعد حروب شديدة ، وكان اصل هذه الفتن ان حاشية ابي بكر وبطانته نفسوا على ضره ابن عرفة مكانته من الدولة ، فأوعزوا الى ابي بكر ان يتخلص منه بحجة الخيانة ، فلما كان في احد الايام في صلاة المغرب طعنه خادم لابي بكر ، فاستفزع الناس هذه الفعلة ، وثاروا بأبي بكر ، وقامت الحرب بين انصار الحكومة وخصومها ، وكان بجانب الحكومة قبيلة نفوسه الجبل والفرس ، فتقلب عليهم خصوم الحكومة ، وعليه تفرق رجال الدولة في اقاصي البلاد ، واستولى ابن مسالة على تيهرت ، فأجلى لواته عن المدينة ، فاجتمعت هذه القبيلة بقواها حول ابي اليقظان ، فذهب بهم مع انصاره نحو تيهرت ، وانضمت اليه نفوسه طرابلس ، فتقوى بها ، وحاصر المدينة التي فتحت له ابوابها بعد سبع سنين من الحصار ، وبذلك فقد ابو بكر امامته بعدما مكث بها مدة عامين .

وتولى الامامة ابو اليقظان ، وكان ابو اليقظان قد ذهب في ايام ابيه الى المشرق بقصد الحج ونيل المعرفة ، فقبض عليه العباسيون ، وأودعه الخليفة الواثق في السجن ، وهناك تعرف الى المتوكل ، فلما آلت الخلافة الى المتوكل اطلق سراحه وأحسن اليه ، فعاد الى تيهرت ، واستولى عليها كما رأينا ، وأمنك مجددا بزمام السلطة ، وظل في مركز الامامة مدة أربعين سنة ، كان خلالها مثالا أعلى للعلماء الزهاد ، فافتتنت به نفوس الجبل ، وصار رجالها يعتقدون فيه اعتقادات ساعدته على ان يحتفظ بمنصبه ومكنته من صيانة الدولة ، وهكذا مكث مقدسا مبجلا حتى توفي سنة ٢٨١هـ / ٨٩٤م بعد ما عمر مائة سنة .

وبويع ابنه ابو حاتم يوسف بالامامة ، وكان ابو حاتم يوسف كثير المروءة واسع الاحسان ، ومع ذلك اضطربت عليه الامور ، فأخرج من المدينة ، ثم عاد اليها ، واثمر

به بعض قرابته فقتلوه سنة ٢٩٤هـ / ٩٠٧م ، وكان بكر بن حماد ، وهو من اكبر علماء عصره ، ممن اوضحوا في الفتنة اول الامر ، لكنه عاد واعتذر اليه بقصيدة وذلك بعدما عاد الى تيهرت ، كما نازعه عمه يعقوب في الحكم ، فارتحل الى قبيلة زواغة ، رافضيا بيعته ابن اخيه ، وبعد ما اخرج ابو حاتم من تيهرت استقدم اهل المدينة العم يعقوب وابعوه ، ف وقعت الحرب بينه وبين ابن اخيه ، وتدخل شيوخ الاباضية بين الامام وعمه فتوقف القتال ، وتآلف الامام الناس فتمكن من العودة الى تيهرت التي غادرها يعقوب الى زواغة مرة جديدة بعدما اقام اميرا اربع سنوات ، وكان يوسف بعيد الهممة ، نزيه النفس ، عاش حتى استولى الفاطميون على تيهرت ، فازتحل الى برقة وهناك عرض عليه اهلها البيعة فرفض قائلا « لا يستتر الجمل بالغنم » ، ثم توجه الى مصر ليستقر نهائيا بعدما اقام بجبال نفوسة وافريقية ضاربا في البلاد متنقلا ، ولم تطل الحياة بابي حاتم حيث قتله بعض قرابته سنة ٢٩٤هـ / ٩٠٧م ، فخلفه بالامامة اخوه ابو اليقظان بن ابي اليقظان الذي لاحقته الجيوش الفاطمية حتى تمكنت من قتله سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٩م وبذلك انطوت آخر صفحات تاريخ الامامة الرستمية في تيهرت ، انما كدولة فقط ، حيث انتشرت فلول الرستميين في انحاء البلاد ، واحتفظ بعضهم بمكانة دينية و قدسية خاصة .

لقد انطوت صفحة دولة الائمة الرستميين في تيهرت انما ليس معنى هذا ان السلالة الرستمية قد اندثرت وانقضى امرها من الشمال الافريقي ، لكننا نجد افراد منها يتجهون ، بسبب الملاحقة الفاطمية ، نحو الشرق ، حيث تمركزوا واتبعهم في واحة ورجلة ، وظل نشاطهم مستمرا هناك حتى داهمتهم جيوش المرابطين ، فهجروها واستقروا في « مزاب » حيث شمروا عن سواعد الجد ، وحفروا الابار وبنوا الدور ، فحولوا تلك الصحراء الى واحات غنية ، ولم يمض طويل وقت حتى صارت واحات الاباضية اشبه بالقرى العظيمة وبذلك نالت اسم « سبع مدن » .

ونجد ابن خلدون يتحدث عنهم في اكثر من مكان من تاريخه ، ويستخلص من كلامه انهم في ايامه كانوا قائمين في بعض الجهات يعيشون في شبه استقلال ، وفي القرن التاسع هـ / الخامس عشر م نجد بعض الرحالة يسميهم « المرتجين المحمديين » ويسجل لهم ان « الامانة هي الطابع الخلقي في تجارتهم ، والايمان يجعل من لهجتهم ومن حياتهم الاجتماعية مغزى نبلا » وما زالت دول : ليبيا ، تونس والجزائر فيها اعداد كبيرة من الاباضية ، لهم نشاط متميز ، وادوار خاصة .

لقد كانت دولة الائمة الرستميين اباضية المنشأ والعقيدة ، ومع هذا آمنت بحرية المعتقد ، فتآلفت حولها القوب ، وتجمعت فيها فرق اسلامية مختلفة النزعات

والجنسيات ، فكان فيها خوارج من إباضية وصفرية ، كما كان فيها شيعة وسنة ومعتزلة مثلوا جميعا قبائل من البربر كان على رأسها زناته مع جماعات من الفونس والعرب عاش الجميع في وئام ، حتى رأينا بعض الأئمة الرستميين لا تقتصر امامتهم على الإباضية بل تزعموا الصفرية والواصلية من المعتزلة في ذات الوقت .

ولقد كان الدور الحضاري للدولة الرستمية عظيما ، لم يقتصر تأثيره على الشمال الإفريقي بل امتد الى قلب القارة الإفريقية .

ومن المفيد ان نشير في نهاية هذا البحث الى انه في الوقت الذي كانت فيه المملكة الرستمية تلفظ أنفاسها تحت ضربات جيوش الخلافة الفاطمية الناشئة ، كانت جماعات النكار الإباضية تجمع قواها وتلتف حول زعيم لها اسمه أبو يزيد مخلد بن كيداد الملقب « بصاحب الحمار » فقد ثار أبو يزيد على الفاطميين أيام القائم ، الخليفة الفاطمي الثاني واستولى على معظم الأراضي الفاطمية ، وحصر الفاطميين في مدينة المهديّة ، وحاول إعادة بناء الدولة الإباضية ، وبعد جهود تمكن المنصور اسماعيل الخليفة الفاطمي الثالث من القضاء على هذه الثورة ، حيث قبض على زعيمها فقتله وشنت أتباعه . وفي الحقيقة ان الحديث عن ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد موضوع مستقل ، يحتاج الى مكان مستقل غير هذا المكان ، ولربما يتاح لنا ذلك في المستقبل ان شاء الله تعالى ويسر (*) .



* أخبار الدولة الرستمية موزعة في التواريخ العامة للشمال الإفريقي وخاصة تاريخ ابن خلدون انما نجد في الادب الإبااضي كتابات تاريخية عالية القيمة تقدم لنا صورة مشرفة لتاريخ الدولة الإباضية في تيهرت ، ويتقدم المصادر الخاصة لهذه الدولة ما كتبه ابن الصغير القيرواني ، ويلي ذلك كتاب سير الأئمة وأخبارهم لأبي زكريا يحيى بن أبي بكر ، ثم كتاب طبقات الشاريف للدرجيني ، ثم السير للشماخي ، وكلها مطبوعة ، ولدى الباروني وهو كاتب حديث ، مواد جيدة عن الرستميين اودعها في أكثر من كتاب تاريخي له .